الكوكب الساري

في

حقيقة الجزء الاختياري

للعارف بالله تعالى الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي
المتوفي سنة ١١٤٣

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٩ هجرية وسنة ١٩٣١

طبعه وصححه محمد راغب الطباخ

مؤلف التاريخ الكبير (اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء)

في مطبعته العلمية بحلب

حقوق الطبع محفوظة له

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الانسان على اكمل مايكون في عالم الامكان
وميزه عما فى السماء من الملك ومافي الارض من الحيوان ، بما اودعه
في خلقته من الجزء الاختياري الذي هو قابلية صدور العدل والعدوان
بسبب قوة وهمية حاملة له على ادعاء الافعال في سره والاعلان ،
فمن اشرقت عليه انوار الروحانية كان من اهل السعادة وكانت افعاله
الأختيارية مرضية ، ومن دخل في غيابات ظلمات الجسمانية كان من
اهل الشقاوة وقبحت افعاله الأختيارية لتخلقه بالأخلاق الشيطانية
وخروجه عن الكمالات الانسانية قال الله تعالى [ونفس وماسواها
فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها]
والصلاة والسلام على سيدنا محمد الفرد الكامل فى الظهور والبطون
والحقيقة الجامعة لأسرار التجلى من الامر الالهى في قوله (كن فيكون)
المنزل عليه في الكتاب المكنون (والله خلقكم وما تعملون) وعلى آله
واصحابه وتابعيه وانصاره واحزابه ماانكشفت الحجب الخلقية عن بيان
وجوه الشؤون ، وتفصلت مجملات الأعيان الكونية بالحركة والسكون .
وبعد فيقول شيخنا العالم العلامة الكامل الفهامة فريد اهل العصر

في العوارف ووحيد الدهر في المعارف، صاحب المقام القدسي والقرب الأنسي سيدي واستاذي الشيخ عبد الغني النابلسي اخذ الله تعالى بيده وامده بمدده؛ واعاد علينا من بركاته وبركات علومه واذاقنا من رحيق خمره ومشروبه» هذه رسالة في بيان مذاهب المتكلمين في افعال العباد الصادرة منهم على وجه الاختيار في سبيل الغيّ والرشاد ثم تحقيق مذهب المحققين في ذلك على حسب ما طلبه مني بعض الأفاضل من الأخوان القاصدين معرفة ماهنالك وسميتها [الكوكب الساري في حقيقة الجزء الاختياري] ومن الله تعالى استمد الاعانة على هذه الابانة وهو حسبي ونعم الوكيل وعلى الله قصد السبيل اقول:

اعلم ان افعال العباد الصادرة منهم على سبيل الجبر والأضطرار مخلوقة لله بالاتفاق ولا مدخل للعباد فيها بالنظر الى حقوق الله تعالى فالتكاليف بمقتضي غضب الله ورضوانه ساقط عنهم في ذلك .

واما بحسب حقوق العباد فلهم مدخل فيها وان كانت صادرة منهم بطريق الجبر والأضطرار كالقاتل خطأً فأن الدية تجب على عاقلته وكذلك من اتلف مالاً لغيره او اتلفت دابته فأنه يضمن شرعاً.

واما الأفعال الصادرة من العباد بطريق الأختيار منهم والارادة وقصد القلب فهي التي وقع الكلام فيها بين العلماء واختلفت فيها المذاهب وكثرت الأقوال والحق فيها واحد كما سنقرره ان شاء الله تعالى .

ولكن ادى كل فريق ماذهبوا اليه من مذهبهم فى ذلك سلوكهم مسلك النظر العقلي والاستحسان بمقتضى الرأي فيما ينبغي ان يكون عليه الأمر في نفسه والا لو سلكوا في هذه المسئلة وغيرها من مسائل علم الكلام مسلك السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بأحسان عليهم الرحمة والرضوان فى الايمان بما يعلمه الله تعالى ورسوله ﷺ من الحق في ذلك وتركوا جانب البحث والجدال فيه والاعتماد على الانظار العقلية والقواعد المنطقية لأشرقت انوار الايمان في قلوبهم وتجلى عليهم نور الله تعالى الذي قامت به السموات والأرض فأبصروا الحق بالحق وكشفوا اللبس وزال عنهم الظن والحدس كما قال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله يهد قلبه) وقال رسول الله ﷺ احذروا فراسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله . رواه ابن جرير عن ثوبان رضي الله عنه .

﴿ فصل ﴾ ان المذاهب في افعال العباد الاختيارية كما ذكرنا ثلاثة مذاهب مذهبان هما في طرفي نقيض كل واحد منهما يناقض الآخر . وهما مذهب القدرية ومذهب الجبرية . ومذهب هو بينهما معتدل وسط بين الافراط والتفريط وهو مذهب اهل السنة والجماعة قال الله تعالى (وكذلك جعلناكم امة وسطاً) الآية .

وقال تعالى [وانَّ لكم فى الأنعام لعبرةً نسقيكم مما في بطونها من بين

فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين] فمن العبرة في الأنعام لجميع الأنام خروج اللبن الطاهر من بين الفرث والدم النجسين كما يخرج مذهب اهل السنة من بين مذهب القدرية ومذهب الجبرية الباطلين

﴿ فصل ﴾ اما مذهب القدرية وهم الذين ينفون قضاء الله تعالى وقدره في جميع الأمور التي تصدر من العباد بطريق الاختيار منهم والارادة ويقولون ان الامر انف اي مبتدأ لم يطرقه احد كما يقال روضة انف وكأس انف اي لم يشرب به احد، ويقولون ان العبد يخلق افعاله الصادرة منه بالقصد والاختيار في الخير والشر، والنفع والضر بسبب قوة اودعها الله تعالى في العبد يخلق بها ما يشاء فيستحق الثواب من الله تعالى والعقاب بمقتضى افعاله في الطاعات والمخالفات والجأهم الي هذا القول ما عرفوا من تكليف الله تعالى لهم بالطاعات ونهيه لهم عن المخالفات على حسب ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ واجمعت عليه الأمة من الاحكام الشرعية المقتضية للطلب منهم والكف فأضطروا بسبب ورود الخطاب منه تعالى للعباد في ذلك الي القول بأن العباد يخلقون افعالهم والا كان خطاب الله تعالى لهم سفهاً وعبثاً لا فائدة فيه ولا حكمة له وهو محال فقد اضلهم كتاب الله تعالي بمقتضي ما فهموه منه تصديقاً لقوله تعالى [يُضلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً] الآية وهم مجوس هذه الامة بحكم قوله ﷺ

ان مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله تعالى ان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم وان لقيتموهم فلا تسلموا عليهم ٠ رواه ابن ماجه فى سننه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما٠

﴿ فصل ﴾ واما مذهب الجبرية المعطلين للتكاليف الشرعية المسفهين للخطابات الآلهية زنادقة هذه الملة الأسلامية فهو ان العباد مجبورون في جميع افعالهم الصادرة منهم اختياراً واضطراراً وان الله تعالى اذا اراد الخير خلقه للعبد وجبره فى فعله ، واذا اراد الشر للعبد خلقه له وجبره في فعله ولا مدخل للعبد في صدور الأفعال منه وان كان عندهم يصح نسبة الأفعال الي العبد فأن ذلك على جهة الأتصاف بها كالذكورة والأنوثة في العبد فأن الله تعالي خلقها فيه وجبره فى الاتصاف بها ولا مدخل له في صدورها منه وكونه متصفاً بها وكذالك عندهم جميع افعال العباد من خير وشر ، ونفع وضر تصدر من العباد وهم مجبرون فيها ومضطرون في كونها صادرة منهم ، والجأهم الى القول بذلك ما عرفوا من الكتاب والسنة واجماع الأمة من ان الله تعالي خالق كل شيء وانه لا تأثير لكل ما سواه في اثر ما وزيادة تشنيعهم وردهم على الفرقة الأولى القدرية القائلين بأن العباد يخلقون افعال انفسهم ففروا من ذلك وتباعدوا عنه ، فوقعوا فيما هو اشد منه وهو القول بالجبر المحض المقتضي لبطلان

الخطاب الآلهي وتسفيه التكليف الشرعي وكون بعثة الرسل وانزال الكتب عبثاً والانذار والتبشير لعباً اذ لا مدخل للعباد فيما يصدر منهم من الأفعال على مقتضى مذهب الجبرية فاحتفال الحق تعالى يكون باطلاً حينئذ بشأن المكلفين وتخصيصهم بالخطاب والامر والنهي دون كل ماعداهم وقبولهم بسبب ماخلقهم عليه من الاستعداد لحمل الأمانة بعد عرضها على السموات والأرض والجبال وأبائها عن قبول ذلك بحكم الآية [ولقد عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال] الى آخره واقتضاه مذهبهم رد النصوص الصريحة في نسبة الافعال الى العبد وكقوله تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وقوله تعالى (اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير) فأثبت للعباد مشيئة في اعمالهم فالقائلون بالجبر المحض ينفون تلك المشيئة فالنصوص كثيرة في الرد عليهم وعلى الفرقة الأولى القدرية ايضاً ولولا ان هؤلاء الفرقتين القدرية والجبرية متأولون في كل مايرد عليهم من النصوص القطعية لحكم اهل السنة والجماعة بكفرهم وخروجهم عن ملة الأسلام رأساً ولم يحكموا بتفسيقهم وتبديعهم ومخالفتهم لمقتضى السنة النبوية والطريقة المحمدية . فالجبرية اضلهم التوحيد الآلهي، والقدرية اضلتهم التكاليف الشرعية فحمل الجبرية القول بالتوحيد على وجه المبالغة ان حكموا بنفي الحكمة في افعال الحكيم جلا وعلا كما حمل القدرية القول

بالتكاليف الشرعية والخطابات الآلهية على وجه المبالغة ان حكموا
بتعطيل القدرة ونفي عموم الخلقة في ملك الله تعالى وملكوته فمالت القدرية
الي جانب النفوس وهو الجانب الأيمن ونظرت بالعين الواحدة ومشت
بالقدم الواحدة فوقعت في النار؛ ومالت الجبرية الى جانب القلوب وهو
الجانب اليسار ونظرت بالعين الواحدة ومشت بالقدم الواحدة فوقعت
بالنار ولم تمل اهل السنة والجماعة الى جانب من الجانبين واعتدلت في
السير ونظرت بالعينين ومشت بالقدمين وآمنت بالطرفين فثبتهم الله
بالقول الثابت كما قال الله تعالى [يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت
في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء] .

ولكن اختلف اهل النظر منهم لسلوكهم مسلك الاجتهاد في الاعتقاد
ودخولهم في مضايق العقول في قبول النقول وقد ألبسوا ايمانهم بظلم
فلم يأمنوا من الجدال والاختلاف وفاتهم مقام الاجتماع والائتلاف
وكان من حق الاعتقاد ان لا يدخله الاجتهاد وان يكون تصديقاً
محضاً واسلاماً خالصاً وامتثالاً الامر على ماهو عليه على حسب
مايعلمه الله تعالى ورسوله ﷺ من الحق والصواب كما هو مذهب السلف
الصالح من الصحابة والتابعين وتابع التابعين رضوان الله تعالى عليهم اجمعين

وهو الآن مذهب المحققين من العارفين ائمة الكشف والتحقيق
والسلوك والتوفيق . ومن حق الاجتهاد ان لا يكون الا في الأحكام

التكليفية والشرائع العملية كما قال ﷺ لما اراد ان يبعث معاذاً الى اليمن قال كيف تقضي اذا عرض لك قضاء قال اقضى بكتاب الله قال فأن لم تجد في كتاب الله ، قل فبسنة رسول الله ﷺ . قال فأن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله ، قال اجتهد برأيي ولا آلو فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله .

رواه ابو داود عن الحارث بن عمرو بن اخي المغيرة بن شعبة عن اناس من اهل حمص من اصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه .

واخرج ابو داود عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ اذا حكم الحاكم فاجتهد فاصاب فله اجران واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله اجر . فالنصوص الواردة في شأن الاجتهاد تقتضي ان يكون مأذوناً فيه في الأعمال الظاهرة فقط من عبادات ومعاملات لا في حق الامور الأعتقادية لأن الظن في الأعتقاد غير مقبول اجماعاً بدليل قوله تعالى [ولا يؤمن اكثرهم الا ظناً ان الظنَّ لا يُغني من الحقِ شيئاً]

وانما المطلوب في الأمور الأعتقادية اليقين والقطع من غير شك ولا تردد كما قال تعالى (اولئك هم المؤمنون حقاً) واختلف العلماء في صحة ايمان من يقول انا مؤمن ان شاء الله تعالى ، والأجتهاد انما

ينتج الظن لا اليقين . ولهذا اختلف المجتهدون في الأعمال الظاهرة وكانوا على هدى في حياة رسول الله ﷺ وبعده ولم ينقل الينا تفسيق بعضهم بعضاً ولا تبديعهم ولا ردهم على بعضهم بعضاً في شيء من امر الأعمال الظاهرة، وانما التبديع والتضليل كان بينهم من جهة الأمور الاعتقادية وماذلك الا لعدم جواز الاجتهاد في الاعتقاد ووجوب التسليم والاستسلام لله ولرسوله في كل ما ورد عنهما من الأخبار وما اشكل من الأمور التي لا ضرورة في طلب المعني المراد منها حيث كان المطلوب منها مقدوراً عليه وهو الايمان والتصديق والتسليم والاستسلام بخلاف النصوص التي مقتضاها طلب معنى زائد على الايمان بها فلا بد من معرفة ذلك المعنى لضرورة القيام به امراً ونهياً ، فالاجتهاد في العمليات ضروري من ضروريات المكلف والاجتهاد في الاعتقاديات غير ضروري بل هو مخل بالقيام بالحكم المقصود من الاعتقاديات وهو التصديق بالغيب ابقاء المحنة في تكليف العبد

ولم يرد في الشريعة نص يقتضي طلب الاجتهاد في الأمور الاعتقادية ماعدا ظواهر يفهم منها ذلك على بعد كقوله تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وقوله تعالى (يتفكرون في خلق السموات والأرض) وذكره تعالى الدليل بقوله [قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا] وانما ذلك ونحوه وقع في مخاطبة الكافرين الجاحدين لتوحيد الله

تعالى والنبوة محمد ﷺ على طريقة الرد عليهم لا ان ذلك تعليم للمؤمنين ان يكونوا عليه في ايمانهم. والذي نقطع به الآن ان جميع اهل النظر ومن تكلم في مسائل الاعتقاد من المتقدمين والمتأخرين انما مرادهم الرد والاحتجاج على المخالفين من المبتدعة وفرقه اهل الضلال والزيغ على فرض وجود ذلك لا ان مرادهم جعل ذلك مذهباً اجتهادياً لأهل السنة والجماعة في مقابلة المذاهب الاجتهادية التي لأهل البدع من المعتزلة وغيرهم وقد رد على اهل النظر كثير من العلماء منهم الامام القرطبي في شرح صحيح مسلم فأنه قال مذهب السلف وائمة الفتوى من الخلف ان من صدق بهذه الامور يعني الواقعة في حديث جبريل عليه السلام لما جاء الى النبي ﷺ في صورة رجل يسأله عن الاسلام والايمان والاحسان واجابة النبي ﷺ بما اجابه به تصديقاً جزماً لا ريب فيه ولا تردد ولا توقف كان مؤمناً حقيقة؛ وسواء كان ذلك عن براهين قاطعة او عن اعتقادات جازمة. على هذا انقرضت الأعصار الكريمة وبه صرحت فتاوى ائمة الهدى المستقيمة حتى حدثت مذاهب المعتزلة المبتدعة فقالوا انه لا يصح الايمان الشرعي الا بعد الاحاطة بالبراهين العقلية والسمعية وحصول العلم بنتائجها ومطالبها ومن لم يحصل ايمانه بذلك فليس بمؤمن ولا يجزى ايمانه بغير ذلك .

وتبعهم على ذلك جماعة من متكلمي اصحابنا كالقاضي ابي بكر وابي

اسحق الأسفرايني وابي المعالي في اول قوليه، والأول هو الصحيح اذ المطلوب من المكلف ما يقال عليه ايمان لقوله تعالى [آمنوا بالله ورسوله] (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) والايمان هو التصديق لغة وشرعاً فمن صدق بذلك كله ولم يجوز نقيض شيء من ذلك فقد عمل بمقتضى ما امره الله تعالى به على ما امره الله به. ومن كان كذلك فقد قضى عهدة الخطاب اذ قد عمل بمقتضى السنة والكتاب ولأن رسول الله ﷺ واصحابه الكرام بعده حكموا بصحة ايمان كل من آمن وصدق بما ذكرناه، ولم يفرقوا بين من آمن عن برهان او عن غيره ولأنهم لم يأمروا اجلاف العرب بترديد النظر ولا سألوهم عن ادلة تصديقهم ولا ارجؤا ايمانهم حتى ينظروا وتحاشوا على اطلاق الكفر على احد منهم بل سموهم المؤمنين والمسلمين واخذوا عليهم احكام الايمان والأسلام ولأن البراهين التي حررها المتكلمون ورتبها الجدليون انما احدثها المتأخرون ولم يخض في شيء من تلك الاساليب السلف الماضون فمن المحال والهذيان ان يشترط في صحة الايمان ما لم يكن معروفاً ولا معمولاً به لأهل ذلك الزمان .

ثم ذكر القرطبي ايضاً في موضع آخر من شرح مسلم قال ويستفاد من هذا الحديث اعني حديث ضمام بن ثعلبة الذي في الصحيحين ان الشرع انما طلب من المكلفين التصديق الجزم بالحق كيفما حصل

وبأي وجه ثبت ولم يقصرهم في ذلك على النظر في دلالة معينة لا معجزة ولا غيرها بل كان من حصل له اليقين بصدقه بمشاهدة وجهه او بالنظر في معجزته ونحو ذلك كان من المؤمنين ومن جملة عباد الله المخلصين انتهى كلام القرطبي رحمه الله تعالى .

﴿ فصل ﴾ واما مذهب اهل السنة والجماعة اعني اهل النظر منهم فهو الاتفاق على ان افعال العباد صادرة منهم وهم الفاعلون لها من غير جبر لهم في ذلك وان الله تعالى خالقهم وخالق افعالهم كلها . غير ان اهل هذا المذهب وان كانوا موصوفين بأنهم اهل السنة والجماعة بالنسبة الى المخالفين لهم من المبتدعة هم مختلفون فيما بينهم ايضاً بأعتبار انهم اهل نظر وجدال .

فالمذاهب عند اهل السنة والجماعة في افعال العباد الأختيارية ثلاثة مذاهب

(الأول) مذهب الظاهرية وهم الطائفة الذين هم مع ظواهر النصوص يقولون بها ويعتقدونها مفهومة وغير مفهومة ويستندون اليها في القول والأعتقاد والأحتجاج من غير تأويل كبعض الحنابلة وغيرهم ومذهبهم في افعال العباد الأختيارية انها صادرة من العباد بتأثيرهم فيها بأذن الله تعالى بالأستقلال ولا هم مجبورون فيها بل هم فاعلون لها مؤثرون فيها عندهم بأذن الله كما قال تعالى : [فهزموهم بأذن الله] وقال تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة

بأذن الله) ونحو ذلك وحملوا نسبة الفعل الى العبد على التأثير من العبد فيها ولكن قالوا التأثير من العبد صادر بأذن الله تعالي لا بالأستقلال من العبد كما ان احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص صادر من عيسى عليه السلام بمعجزة له بأذن الله تعالي قال الله تعالى حكاية عنه [اني اخلقُ لكم من الطينِ كهيئةِ الطيرِ فأنفخ فيه فيكونُ طيراً بأذن الله وابرئ الأكمهَ والأبرصَ واُحيي الموتى بأذنِ الله] فقد نسب التأثير اليه وجعله بأذن الله .

(والثانى) من المذاهب الثلاثة مذهب الأشاعرة وهم جماعة ابي الحسن الأشعرى رحمه الله تعالي ينسبون اليه لقولهم بقوله في متابعة اقواله ، واستنباط الأقوال من مفاهيم اقواله ، ومذهبهم في افعال العباد الأختيارية ان الله تعالى اذا اراد أن يخلق للعبد افعالاً اختيارية هي مناط تكليفه فى الخير والشر والنفع والضر خلق له اختياراً جزئياً لتلك الأفعال يجبر الله تعالي العبد فى خلقه ذلك الأختيار له فالعبد عندهم مختار في افعاله مجبور فى اختياره وهو الجبر المتوسط دون الجبر المحض الذى هو مذهب الجبرية المذكور فيما سبق فالله تعالى عند الأشاعرة يخلق الأختيار للعبد عند خلق الأفعال له فتنسب الأفعال المخلوقة في العبد للعبد . وتكون افعاله اختيارية صادرة منه منسوبة الى اختياره المخلوق فيه فلا جبر للعبد فى افعاله وان كان مجبوراً فى اختياره كما ذكرنا

وباعتبار هذا المذهب يقول الشيخ الأكبر محى الدين ابن العربي قدس الله سره في كتابه الفتوحات المكية في الباب الثالث والسبعين منه المجبور فى اختياره لا شيء عليه بالأختيار الا مع رفع القلم عنه بالجبر في ذلك الاختيار سراً لأن الاختيار يناقض الجبر فيعلم عند ذلك ماهو المراد بالاختيار ويري انه ما ثم في الوجود الا الجبر من غير اكراه فهو مجبور غير مكره وهذه المسئلة من اعظم المسائل في المعارف فكم هلك فيها من الخلق قديماً وحديثاً انتهى كلامه.

(والمذهب الثالث) من المذاهب الثلاثة مذهب الماتريدية جماعة ابي منصور الماتريدى نسبوا اليه ايضاً لقولهم بقوله واستنباطهم من اقواله ومذهبهم في افعال العباد الأختيارية ان الله تعالى لما خلق العباد المكلفين من بني آدم والجن خلق تعالى لهم من جملة قواهم الباطنة قوة اختيارية عقلية مثل ما خلق الله فيهم قوة خيالية يتخيلون بها المعانى في مقدم الدماغ وقوة فكرية يجولون بها على المعاني في وسط الدماغ وقوة حفظية يحفظون بها المعانى ويضبطونها في مؤخر الدماغ كما انه تعالى خلق لهم قوة بصرية يبصرون بها المرئيات وقوة سمعية يسمعون بها الأصوات . وقوة ذوقية يدركون بها الطعوم، وقوة شمية يدركون بها الروائح وقوة لمسية يدركون بها الحرارة والبرودة والنعومة والخشونة وغير ذلك من القوى المخلوقة لهم في هذا الجسم

الانساني في مواضع منه معلومة وهذه القوى وغيرها موجودة في خلقة الأنسان من ابتداء وجوده الى وقت موته ، و بعد موته توجد في روحانيته ايضاً بأعتبار تشخصها بالصور البرزخية المناسبة لذلك العالم وان كانت هذه القوى كلها اعراضاً غير مستقرة لأمتناع بقاء العرض فأنها مستمرة في الأنسان باقية فيه بتكرار الأمثال على حسب ما يريده الله تعالى ، فكذلك للعبد عند الماتردية من جملة تلك القوى قوى اختيارية خلقها الله تعالى في نفس العبد موجودة فيه من ابتداء وجوده متكررة فيه بخلق الأمثال كغيرها من القوى يخلق الله تعالى الأفعال لذلك العبد على حسب ماتقتضيه تلك القوة الأختيارية وبحسب ماتوجهت من الخير والشر والنفع والضر . ثم يثيب الله تعالى العبد على ذلك في الآخرة و يعاقبه بمقتضى ذلك .

وبهذا الأعتبار تسمى تلك القوة جزءاً اختيارياً كأنها جزء من خلقة الأنسان منسوب الى الأختيار . وحيث كانت تلك القوة الأختيارية جزءً من خلقة الأنسان كانت بمنزلة يده ورجله في اجزاء جسم الأنسان فلا يقال حينئذ في تلك القوة الأختيارية ان الأنسان مجبور في خلقها فيه ولا أنه مختار في خلقها فيه ايضاً كما لا يقال انه مجبور في خلق اليد له والرجل ولا مختار في ذلك ولأنه لا يكون انساناً في مرتبة التكليف الا بعد ان يخلق الله تعالي فيه القوة الاختيارية

فأذا خلقت فيه كان تام الخلقة كامل الصورة وليس نسبة الجبر اليه في خلقها له بأولى من نسبة الجبر اليه في خلقه كله ظاهراً و باطناً . فكما ان العبد لا يقال فيه انه مجبور في خلقه وإيجاده في هذه الحياة الدنيا لا ينسب اليه الجبر باعتبار قوة مخلوقة فيه من بعض قواه المخلوقة فيه ثم ان تلك القوة الأختيارية مادامت مخلوقة في العبد فالعبد مكلف بالأحكام الشرعية فأذا سلبت عنه في وقت من الأوقات سقط تكليفه انقصان خلقه بفقد جزء منها وهو الجزء الأختياري كحالة نوم الانسان واغمائه وجنونه كما انها اذا لم تكمل بالبلوغ فليس معتداً بها شرعاً . ولهذا لا تكليف على الصبي لعدم كمال انسانية فيه . فالعبد عند الماتريدية فاعل مختار لكل مايشاء ومايريد من الخير والشر والنفع والضر . ومع ذلك هو مخلوق كله ذاته وصفاته وافعاله، وليس بمجبور اصلاً لا جبراً متوسطاً ولا جبراً محضاً .

اما كون العبد فاعلاً لأفعاله الأختيارية فلأن من المعلوم اليقين ان الفاعل كل من صدر الفعل منه كما يقال حركت الحجر فتحرك الحجر اي صدرت منه الحركة فالحجر هو الموصوف بالحركة الصادرة منه لا المحرك موصوف بذلك و كذلك العبد هو الموصوف بأفعاله الاختيارية الصادرة منه لا أن الله تعالى هو الموصوف بشئ من ذلك لأن الله تعالى هو الخالق لتلك الأفعال في العبد بمنزلة المحرك للحجر في مثالنا

المذكور فانه لا يوصف بالحركة التي حرك الحجر بها وهي المتحركة الانفعالية وانما يوصف بالحركة الفاعلية . وبهذا الاعتبار قالوا ان الله هو الخالق والعبد هو الكاسب . واما كون العبد مختاراً في افعاله الاختيارية فلانه مخلوق له جزء اختياري فيه من قبل صدور الافعال منه فهو مختار مريد يفعل مايشاء وان كانت مشيئته متعلقة بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى [وما تشاؤن الا ان يشاء الله] فالعبد مخلوق كله ظاهر في ملك الله تعالى بأنه مختار مريد فعال لما يشاء ولله الحجة البالغة ولوشاء لهداكم اجمعين . هذا تقرير مذاهب العلماء في مسئلة افعال العباد على وجه التلخيص والاختصار . وفي كتب علم الكلام الاطالة في ذلك والاكثار فمن اراده فليراجعه في اماكنه . وفي ظني ان ماذكرناه يغني عن ذلك لاشتماله على فرايد لا توجد في علم الكلام يعرفها الماهر النحرير المطلع على هذا التحرير .

﴿ خاتمة ﴾ واما الذي عندنا في تقرير هذه المسئلة وبيان سرها على وجه الاشارة اذ حقيقة معرفتها متوقفة على الكشف وانفتاح باب الغيب الملكوتي للقلب الانساني حتي يدري العبد كيف خلقه الله تعالى ويعرف كيف خلق الله تعالى السموات والارض كما قال سبحانه وتعالى [افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والي الارض كيف سطحت] الآية وقال تعالى [سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم انه الحق] .

وقال تعالى في قوم آخرين (ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم) الآية فمن اشهده الله تعالى خلق نفسه وعرف نفسه كيف خلقت عرف كيف خلق كل شئ وهذا علم طريقة التقوى والصدق والاخلاص لا القراءة والتفهم من المشايخ ولكن حظ العقلاء من ذلك ما نشير اليه ان الله شاء تعالى .

(فصل) اعلم اولاً ان الله تعالى حيث خالق كل شئ كما هو المعروف في عقايد العموم لم يكن شيء من الأشياء يؤثر اصلاً في شئ من الاشياء فالعمل الصالح لا يؤثر في حصول رضوان الله تعالى ولا في الجزاء عليه في الدنيا والآخرة من دخول الجنة ومن بلوغ المراد . ودخول الجنة لا يؤثر في حصول النعيم بما فيها او اللذة . وكذلك العمل الفاسد لا يؤثر في حصول سخط الله تعالى ولا في الجزاء في الدنيا والآخرة من دخول النار والعقاب ولا يؤثر دخول النار في حصول الألم والعذاب اصلاً وانما المؤثر في جميع ذلك وفي غيره ايضاً هو الله تعالى وحده وقد خلق الله تعالى الانسان له ذات وله صفات وله افعال كما انه تعالى له ذات وله صفات وله افعال والمؤثر في ذات الانسان وفي صفاته وفي افعاله هو الله تعالى وحده بذاته سبحانه وبصفاته وبافعاله فكان الانسان الذى هو مجموع الذات والصفات والافعال بمنزلة الصورة لذات الله تعالى واصفاته ولافعاله .

ولهذا ورد في بعض الاخبار ان الله خلق آدم على صورته .

وفى رواية على صورة الرحمن فكان ذات الله تعالى وصفاته وافعاله بمنزلة الصورة وآدم خلقه الله تعالي على تلك الصورة .

اما كون ذات الله تعالى وصفاته وافعاله بمنزلة الصورة فهذا امر باطن خفي وسر لا ينكشف الا للمحققين من اهل المعرفة فأنه ليس في الوجود الا ذات الله تعالى التي هي في غيب الأزل المنزهة عن جميع ادراكات العقول والحواس . وصفاته تعالى التي هي الغيب ايضاً كذلك وافعاله تعالي التي هي كل شيء من السموات والأرض ومافيها ومابينهما فكان مجموع كل شيء من المخلوقات ماعدا الانسان مع الصفات الآلهية والذات الغيبية بمنزلة صورة واحدة منسوبة الى الله تعالى كما قال تعالى: (لله مافى السموات ومافى الارض) وقال تعالى (وله كل شيء) وقال تعالى [وهو الله في السموات وفي الارض] وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والارض) وقال تعالى [فأينما تولوا فثم وجه الله] الي غير ذلك . ثم انه تعالي لما تمم الصورة وتكملت مراتب افعاله على نسق صفاته بمقتضى كمال ذاته خلق آدم من مجموع حضراته كلها فظهر فيه بالمقام الذاتى كما يشير اليه قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسى « ماوسعني سماواتي ولا ارضي ووسعني قلب عبدي المؤمن » وظهر فيه بالمقام الصفاتى فى اشارة قوله عليه السلام « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذي يبصر به » الحديث وظهر فيه بالمقام

الأفعالي حتى قال تعالى في ذلك [فتبارك الله احسن الخالقين] لأن جميع المكلفين لما اقامهم الله تعالى مقام الخالقين ولا خالق غيره كان هو احسن الخالقين فنزه نفسه تعالى عن المشاركة في شئ من ذلك بقوله سبحانه (فتبارك) فأنها كلمة تنزيه ٠

وبهذا الأعتبار كان الخطاب من الله تعالى للانسان وحصل التكليف بالأمر والنهى لأن الأنسان وحده في رتبة ثانية في الوجود وجميع الموجودات كلها في رتبة اخرى هى الرتبة الأولى في الوجود ويشير الى هذه المقابلة الواقعة في قوله تعالى [ما اشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق انفسهم] فأنه تعالى قابل السموات والأرض بالأنفس الأنسانية، فالأنفس الأنسانية تشتمل على جميع ماتشتمل عليه السموات والأرض حتى ان التجلى من الذات الالهية بالصفات الربانية حاصل على الأنفس الأنسانية كما انه حاصل على السموات والأرض فكانت الصورة الأفعالية للذات والصفات في الأنفس الأنسانية نظير الصورة الأفعالية في السموات والأرض وقد ظهرت المولدات الأربعة الجماد، والنبات، والحيوان والأنسان عن العناصر الأربعة، النار والهواء والماء، والتراب، وعن الطبايع الأربعة الحرارة، والبرودة، والرطوبة واليبوسة، وذلك كله فيما بين السموات والأرض في اعمال الصورة الكبيرة الالهية التي هي آيات الله في السموات والأرض فلابد ان يظهر

في الصورة الصغيرة الآلهية الأنسانية نظير ذلك من الأعمال التي تظهر في الآخرة من جمادات الغرف والقصور التي في الجنة والأودية والدركات التي في النار، ونباتات الفواكه والأشجار والرياحين التي في الجنة، وشجرة الزقوم وطلعها الذى فى النار، وحيوانات الخيل والطيور التي في الجنة، والحيات والعقارب التي في النار، وخلط الصفراء والسوداء والبلغم والدم مع الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. وهذه كلها في الأنسان الصغير كما هي موجودة في الأنسان الكبير والله بكل شيء عليم فمن عرف كيف خلق الله تعالى السموات والأرض وعرف كيف خلقه الله تعالى هو ايضاً فأراه الله تعالى آياته في الآفاق وفي نفسه حتى يتبين له انه الحق عرف بالضرورة كيف يعمل الأنسان الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة، وعرف كيف يستحق الثواب في الآخرة على اعماله الصالحة وكيف يستحق العقاب في الآخرة والعفو والتجاوز على اعماله الفاسدة، وعرف كيف ان الأنسان مخير في جميع افعاله، مسير في جميع احواله غير مجبور في اعماله ولا موثر في شيء باستقلاله وعرف جلية الحال واستغنى عن كل قيل وقال وزال عنه الشك والأشكال وانفكت له الطلاسم وانفتحت له الكنوز وانزاحت له الأقفال وانحلت القيود والأغلال، ومادام الأنسان جاهلاً بمعرفة نفسه كيف خلقت وغافلاً عن ذاته القابلة

بأمر الله تعالى ، فلا يدرى كيف تكونت ولا يعرف امر الله الذي قام به كل شيء المعبر عنه « بكن فيكون » ولا يتحقق الأكوان المتلبسة بصورة الحركة والسكون فهو تائه في ظلمات الجهالات قانع من العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية بالأوهام والخيالات .

ولا طريق للتحقيق بمعرفة ماقلناه الا بملازمة الشيوخ الصادقين اهل القلب النوراني ، والسر الرباني والثبات في صحبة ارباب العلم الآلهي الذوقي الوجداني ، والصدق في خدمتهم بدوام اعتقادهم مع التسليم لأحوالهم واقوالهم من غير اعتراض عليهم بالظاهر او بالباطن في وقت من الأوقات ولا في ساعة من الساعات حتى تشمله العناية الآلهية كما شملتهم و ينظر الله تعالى اليه كما هو ناظر اليهم ويتأثر في نفسه بكثرة مجالستهم واستحسان حالتهم والأمتثال لأوامرهم والأنتهاء عن نواهيهم والقول بقولهم والتقليد لهم والمتابعة لطريقهم وان لم يكن عارفاً بما هم عليه من المعارف ولا هو فاهم لشيء مما يعلمه منهم غير انه مسلم لهم جميع ماهم فيه على حسب مايعملون هم فان الله تعالى من غير شبهة ولا شك يلحقه بهم ويجعله منهم اذا واظب على ماذكرناه ولم يجعل في نفسه لعمله ذلك غاية يقف عندها و كانت نيته دوام معاملته تلك الى موته ونعمت الحالة هذه لمن وفقه الله تعالى لها .

وان لم يحصل على شيء من العلوم الذوقية والأحوال الكشفية

فان صحبة ولي الله تعالى اذا ظفر عبد من العباد ولو في اعتقاده هو ان هذا الذي صحبه ولي ودوام محبته وخدمته بالصدق من اعظم القربات عند الله تعالى [ومن كذب فعليه كذبه] [والله يعلم المفسد من المصلح] « وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » والله اعلم واحكم.

قال والى هنا انقضى بنا الغرض من وضع هذه الرسالة والحمد لله على كل حال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه ·

قال المصنف نفعنا الله به وامدنا بمدده وهذا آخر مافتح به الباري في تحرير حقيقة الجزء الأختيارى فى تاريخ نهار الثلاثاء اوائل ربيع الثاني سنة مائة والف ·

طبعت هذه الرسالة على نسختين خطيتين الأولى ضمن مجموع في خزانة التكية الأخلاصية وقد جاء في آخرها ما نصه :

قد وافق الفراغ من كتابتها ليلة الثلاثاء اواخر شهر صفر الخير سنة ثلاثمائة والف على يد خادم اعتاب المشايخ الفقير عبد الرحمن بن ابراهيم بن احمد ابن عبد الرزاق وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ·

والثانية في خزانة الطبيب السيد عبد الرحمن ابن السيد عبد القادر الكيالي وقد جاء في آخرها ما نصه :

وقد تمت على يد الفقير الحقير راجي فضل ربه القريب المجيب الحاج مصطفى ابن الحاج رجب يوم الخميس في ٢٨ شهر صفر الخير سنة ١١٤٧ فتكون محررة بعد وفاة المؤلف قدس سره بأربع سنوات والحمد لله اولاً وآخراً ·

طبعها في ٢٢ شوال سنة ١٣٤٩